الأنماط الثقافيّة المعاصرة ومعوّقات التطوّر الثقافيّ لدى الشباب

هشام البستاني ❖

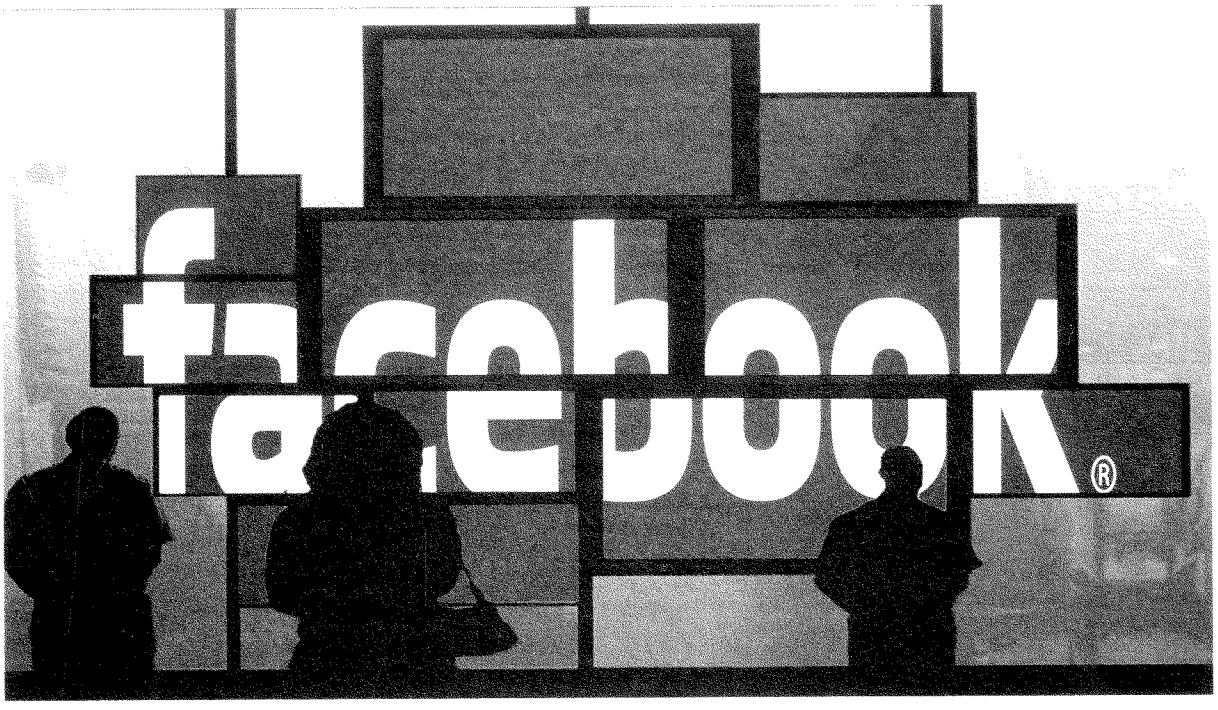

ليس من الحكمة إسقاطُ التقسيمات القادمة من مدارس «التنمية» المختلفة على الثقافة وإرهاصاتها. وإذا كانت هذه المدارس قد تعرّضتْ إلى نقد شديد على يد الكثيرين من منطلق اقتصاديّ،[١] فإنّ الوقت حان لنقد مقولات التنمية المستوردة إلى حقل الثقافة.

تقوم التنمية على الإنسان بوصفه غايتها الأساسيّة،[٢] وتستهدف توظيفَ عناصر الطبيعة والاجتماع والاقتصاد ضمن مفهوم مركزيّة الإنسان وعزله عن محيطه - وهو ما يتناقض مع مفاهيم أكثر معاصرةً ترى الإنسان جزءًا من نظام إيكولوجيّ عامّ ومن بنية حيويّة تشمل جميعَ الكائنات الحيّة وغير الحيّة. وبحسب نزعة التنمية «الانعزاليّة» هذه، قُسّمت المجتمعاتُ إلى مجموعاتٍ قائمةٍ على العمر والنوع الجنسيّ، وتمّ التركيزُ على الأطفال والنساء والشباب بوصفها قطاعاتٍ أقلّ حظًّا من غيرها،[٣] ما يستلزم وضعَ برامجَ خاصةٍ لـ «تمكينها» بتحويلها إلى فئات «مفيدة» ضمن المشروع التنمويّ.

❖ قاصّ وكاتب من الأردن. له: **عن الحب والموت** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨)، **والفوضى الرتيبة للوجود** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٠)، **وأرى المعنى...** (بيروت: دار الآداب، ٢٠١٢). نُشرتْ أبحاثه ومقالاته في العديد من المجلات والصحف العربيّة والعالميّة.

(١) أنظر مثلاً: سيرج لاتوش، **تغريب العالم**، ترجمة خليل كلفت (القاهرة: دار العالم الثالث)، ١٩٩٢؛ و

Samir Amin, Maldevelopment - Anatomy of a Global Failure (Oxford: Pambazuka Press, 2011, 2nd edition).

(٢) إسماعيل سراج الدين، «الأبعاد الثقافيّة للتنمية في الوطن العربيّ،» **مجلة التنمية والسياسات الاقتصاديّة** (الكويت)، المجلد ٤، العدد ١، ديسمبر ٢٠٠١.

(3) Heba Handoussa, «Women and Youth in Arab Development,» http://www.arab-api.org/conf_0310/p1.pdf; and: «Focus on Women and Youth Crucial for Development in Arab Region,» http://www.un.org/apps/news/story.asp?NewsID=36734&Cr=jobs&Cr1=, Accessed 312011-8-

لكنْ، إذا كانت ثمة عوامل موضوعيّة للتعامل مع ثقافة الأطفال بشكل منفصل بسبب الخصوصيّات الفزيولوجيّة والمعرفيّة والسيكولوجيّة المعروفة، فإنّ هذه العوامل لا تتوفّر في المجال الثقافيّ لدى الشباب أو النساء؛ فهاتان فئتان غادرتا مرحلة الطفولة، بما يؤهّل للتعامل معهما بوصفهما كائناتٍ مسؤولةً وغير معتمدة في وجودها على الغير. هكذا يصبح تخصيصُ حيّز ثقافيّ محدّد ومغلق، اسمُه «ثقافة الشباب» أو «ثقافة المرأة،» أمرًا بعيدًا عن الموضوعيّة، ويحمل النزعةَ الانعزاليّةَ ذاتها المتضمّنة في مدارس التنمية. كما يستبطن هذا التخصيصُ نظرةً استصغاريّة أبويّة لا تخدم مهمّات النهوض بالثقافة على كلّ المستويات. لهذا ينبغي التحفّظ، بدايةً، عن مفهوم «ثقافة الشباب» لكونها جزءًا لا يتجزّأ من المشهد الثقافيّ العامّ لمن هم «كبار» بلا تمييز.

أهمّ سمات ثقافة الشباب طغيان المرئي/المسموع على بقية الأشكال الثقافية [بسبب] انتشار التلفاز ... ومحطات الـ FM

I - أنماط ممارسة «الشباب» لـ«الثقافة» / الأنماط «الثقافيّة» المعاصرة

بالإمكان الحديث عن أنماطٍ تميّز الممارسة الثقافيّة للشباب، لكننا سنجد أنفسنا في ورطةٍ تتعلّق بتعريف «الشباب.» ولأنّ الأمر يتعلّق بالثقافة، فسأحدّد أنّ الشباب هم من تتراوح أعمارُهم بين السادسة عشرة والأربعين، معتمدًا على التعريف العمريّ، وعلى «التعريف الأدبيّ» - أيْ على ما هو متعارفٌ عليه لدى المؤسّسات الثقافيّة والكتّاب: فالجيل الأدبيّ/الثقافيّ يتحدّد بعشر سنوات (فيقال جيل الثمانينيّات أو التسعينيّات...). من الطبيعيّ إذن أن يكون العقدان الأوّلان من عمر الكاتب هما عمر الشباب الأدبيّ أو الثقافيّ. ونرى انعكاس ذلك في جوائز كثيرة، مثل جائزة يوسف إدريس للقصة القصيرة (للشباب) التي تشترط للمتقدّم أن يكون دون الأربعين، وجائزة الشيخ زايد للمؤلّف الشابّ، وجائزة عبد الحميد شومان للباحثين العرب الشباب؛ ونلاحظه أيضًا ضمن المهرجانات الأدبيّة للشباب، كالذي نظّمتْه مؤسّسة Hay Festival في بيروت وبوغوتا تحت اسم «بيروت ٣٩» و«بوغوتا ٣٩» معرّفةً شبابَ الكتّاب بمن هم في التاسعة والثلاثين فما دون.

إذا تبنّينا هذا المدى العمريّ الواسع للشباب، فسنجد أنفسنا أمام تباينات كبيرة في السلوك والممارسة الثقافيتين. فإذا أضفنا عاملَ «الجيل التقنيّ» لمنتجات تكنولوجيا الاتصال وتأثيراتها العضويّة في مفهوم «الأجيال،» صرنا أمام معضلة حقيقيّة.

يحدد قانونُ موور «الجيلَ التقنيّ» بفترةٍ تتراوح بين سنة وسنة ونصف السنة. وهذا القانون، بسلطته على التطورات الهائلة في التكنولوجيا، لم يؤثّر في جميع جوانب الاقتصاد العالميّ فحسب،[١و٢] بل امتدّ تأثيرُه إلى الجوانب الاجتماعيّة والثقافيّة كذلك: «[قانون موور] غيّر، بعمق، الحضارة [الإنسانيّة] من خلال تغيير] مفاهيمنا عن المعلومات وطريقة وصولنا إليها.... وبتأثيراته في الكمبيوتر، والاتصالات، والالكترونيات المعدّة للاستهلاك، وصناعة البرمجيّات، فإنّه قد غيّر عالمَنا بأكمله.»[٣]

بهذا المعنى، يصير لدينا جيلٌ شابٌّ ثقافيًّا كلّ ثلاث سنوات تقريبًا، هي فترةُ دخول التكنولوجيا حيّزَ الاستهلاك وهرمها بفضل دخول منتجاتٍ أحدثَ وأسرعَ وأكثرَ قدرةً، وبغضّ النظر عن العمر الفعليّ، لأنّ تأثيرات تكنولوجيا الدوائر المدمجة وأشباه الموصلات عابرةٌ للأعمار الزمنيّة. وصار بإمكاننا الاستنتاج أنّ على التصنيف الجيليّ للثقافة أن يأخذ في الاعتبار تطوّرَ الشخص تتابعيًّا من خلال البصمة التي تتركها منتجاتُ الاتصال الإلكترونيّة وتطبيقاتها على سلوكه ضمن فترةٍ ضيّقة تلغي فكرة «الجيل» التقليديّة. وكما أنّ الكتابة الجديدة «لا علاقة لها بالعمر ولم تسقط فجأةً بلا مقدّمات من فضاء الأدب،»[٤] فإنّ تأثيرات التكنولوجيا في ثقافة عصرنا لا تقتصر على فئة عمريّة (الشباب) دون غيرها. وهكذا نستطيع أن نحدّد مجموعةً من الممارسات الثقافيّة المرتبطة بالعصر لا بالعمر. ولمّا كان الشباب هم الفئة العمريّة الأقرب إلى العصر (أيّ عصر)، فإننا نستطيع القول إنّ هذه الممارسات أكثر انطباقًا عليهم من الفئات العُمريّة الأكبر سنًّا.

ما هي سماتُ هذه الثقافة؟ سأعدّد بعضها، مع التنبّه إلى أنّ أكثرها متداخل بعضه مع بعض، والفصل هو للزوم التوضيح فقط.

أولاً: طغيان المرئيّ/المسموع (Audiovisual) على بقيّة الأشكال الثقافيّة. وهذا ناتج بشكل أساسٍ من انتشار التلفاز والدعم الهائل الذي يلقاه البثُّ التلفزيونيّ من الشركات التي تعتمد عليه في تسويق منتجاتها الاستهلاكيّة، ومن ثم انتشار محطات الـ FM الإذاعيّة. والوسيلتان (التلفاز والإذاعة) تعملان

---

(1) Gordon E. Moore, «Cramming More Components onto Integrated Circuits,» **Electronics**, Volume 38, Number 8, April 19, 1965.

(2) Michael Kanellos, New Life for Moore's Law, CNET News.com, April 19, 2005.

(3) David E. Liddle, «The Wider Impact of Moore's Law,» **Journal of the SSCS**, September 2006.

(٤) هشام البستاني، مقدمة ملف «الكتابة الجديدة في الأردن: مختارات،» الآداب، العدد ٩-١٠/٢٠١٠، ص ٦٦.

على تنميط الأفراد والمجتمعات من خلال تشكيل الذائقة وطبيعة الاستهلاك وإحساس الأفراد بالقبول العامّ من الآخرين. وتُلحظ هنا سهولةُ تلقّي المادة المرئيّة/المسموعة، وتوفّرُها بشكل شبه مجّانيّ، وإمكانيّةُ التعاطي معها كشكل من أشكال التسلية الجماعيّة على عكس القراءة مثلاً. كما صرنا نرى رحيلاً إبداعيًّا للشباب نحو تعلّم إخراج الأفلام، ونحو فنون الفيديو والتجهيز (installation) كأشكال فنيّة تدمج السمعيّ/البصريّ في التشكيل أو الفوتوغراف. ويتجه الشباب أيضًا إلى الموسيقى باتجاهاتها المختلفة، من الشرقيّ الكلاسيكيّ إلى الهيب هوب. كما صرنا نرى بعضَ الشعراء والكتّاب يُصدرون أسطوانات مدمجة لنصوصهم، مغنّاةً أو ملقاةً بمصاحبة الموسيقى، أو يقدّمونها على اليوتيوب في شكل ڤيديوهات قصيرة، أو يرفقونها على الفيسبوك بصورة، لأنّ الصورة أقدرُ على جذب الانتباه وهي تتحرّك على الشاشة. وبإمكان المتابع لمجلاتٍ تجاريّةٍ تغطّي المواضيع الثقافيّة في عمّان، مثل **JO** و**Go** و**Amman Review** و**OC Magazine**، أن يلاحظ الاهتمام الكبير بالفنون المرئيّة/المسموعة، فيما هي تهمل جميعَ الآداب (قصة، شعر، رواية..) وكتّابها بصفتهم خارج الموضة الثقافيّة السائدة. وتعزّز السفاراتُ الأجنبيّة وهيئاتُ تمويل الثقافة هذا التوجّه بتقديمها عددًا كبيرًا من المِنح الماليّة لهذا الخطّ الفنيّ. كما تعزّز مواقعُ التواصل الاجتماعيّ، مثل الفيسبوك، طغيانَ السمعيّ/البصريّ نظرًا إلى سهولة وضع مثل هذه المواد وتشغيلها ضمن تلك المواقع.

ثانيًا: طغيان النزعة الاستهلاكيّة والتجاريّة. وهذا ناجمٌ بشكل مباشر عن تأثيرات التلفاز ومحطّات الـ FM الإذاعيّة السالفة الذكر، وعن انعدام العمق المعرفيّ لمُنتج «الثقافة» نتيجةً لضعف القراءة أو انعدامها خارج المقرَّر الدراسيّ، والاعتماد فيها ـ إنْ وُجدتْ ـ على اللغة الإنجليزيّة فقط (أنظر ثالثًا ورابعًا وخامسًا أدناه). وهو أيضًا ناجمٌ عن دخول الرداءة والابتذال على الثقافة (موجة «الأغاني الوطنيّة» على سبيل المثال). يضاف إلى ذلك كسلُ المتلقّي الذي تُقدّم إليه هذه «الثقافةُ» بشكل شبه مجانيّ، واصلةً إلى بيته، وعدمُ بحثه عن بدائل أكثر جدّةً، وخضوعُه لتأثير الدعاية.

ثالثًا: ضحالة القراءة، وخصوصًا قراءة الكتب، وعلى الأخصّ كتب الفلسفة والعلوم. وهذا ناتج من عوامل كثيرة لا مكان لإيرادها هنا بالتفصيل. وبالإمكان العودة إلى **تقرير التنمية البشريّة العربيّة للعام ٢٠٠٣**، **والتقرير العربيّ الثالث للتنمية الثقافيّة** ٢٠٠٩، للوقوف على الحال البائسة للقراءة والكتب والنشر في الوطن العربيّ.[١]

رابعًا: التقليل من استخدام اللغة العربيّة، وتحوّلُ القراءة والكتابة إلى اللغة الإنجليزيّة (والفرنسيّة بشكل اقلّ). ويعود ذلك بشكل أساسيّ إلى دخول تعليم المناهج باللغة الإنجليزيّة إلى المدارس، خصوصًا تلك التي تطرح البرامج الدوليّة مثل الـ IB والـ GCE. يضاف إلى ذلك التأثرُ الانبهاريّ المَرَضيّ بالغرب، والانقسامُ الثقافيّ الطبقيّ المفتعل: حيث الإنجليزيّة سمةُ الطبقات العليا، والعربيّة لغةُ الطبقات الدنيا. وتأثيرُ اللغة الإنجليزيّة هذا نجد صداه الواضح في المجلات التجاريّة المهتمّة جزئيًّا أو كليًّا بالشأن الثقافيّ المذكور أعلاه، وفي كتابة العديد من سيناريوهات الأفلام القصيرة العربيّة باللغة الإنجليزيّة، وفي تحادث بعض «المثقفين» الشباب بالإنجليزيّة أو تطعيم عربيّتهم بها على الأقلّ. وتنبغي الإشارة هنا إلى إصدار مجموعة من الشباب والشابات ديوانيْن (٢٠٠٨ و٢٠٠٩) بعنوان **Jordan Poetry** باللغة الإنجليزيّة؛ وإلى نشوء كتابة هجينة مثل كتابة العربيّة بالأحرف اللاتينية أو دمج العربيّة والإنجليزيّة في نص واحد ـ وهذه تنتشر بكثرة في الرسائل الخلويّة، ورسائل البريد الإلكترونيّ، ومواقع التواصل الاجتماعيّ.

خامسًا: اعتماد «الأخبار» و«الإعلانات التجاريّة» مادّةً معرفيّةً. في ظلّ انحسار القراءة، وطغيان المواد السمعيّة/البصريّة، وتحوّل المواقع الاجتماعيّة إلى ظاهرة كاسحة، تحوّلت الموادّ الإخباريّة الصحفيّة والتلفزيونيّة والإعلانات التجاريّة إلى موادّ «معرفيّة،» وصار قارئُ الجريدة «مثقفًا،» وتم التحوّلُ نحو «الوجبات الروتانيّة السريعة التي يعيد الشخصُ إنتاجها بصفتها وعيًا شخصيًّا أصيلاً، من دون أن يتنبّه إلى أنها مجرّدُ إعادة تمثّلٍ للقيء الاستهلاكيّ اليوميّ الذي تضخّه الشركات.»[٢]

سادسًا: انحسار التفكير النقديّ. وهذا ناتج من نزوع السلطة السياسيّة العربيّة عمومًا إلى تغييب التساؤل، وإلى تأثير الفكر الدينيّ، واستكمال الجامعات للدور التلقينيّ الذي تمارسه المدارسُ بدلاً من أن تكون فضاءاتٍ لتنمية التفكير وتحفيز الأسئلة. وبالعودة إلى **تقرير التنمية البشرية العربية لعام ٢٠٠٣**، سنجد أنّ أكبر حجم لإنتاج الكتب هو في مجال الكتب الدينيّة؛ كما تؤكّد دُورُ النشر في **التقرير العربيّ الثالث للتنمية الثقافيّة** أنّ «الكتب الأكثر مبيعًا هي الكتب المتعلّقة بالأديان.»[٣]

---

(1) **Arab Human Development Report 2003, United Nations Development Programme** (New York: United Nations Publications, 2003), p 76 – 79.
والتقرير العربيّ الثالث للتنمية الثقافيّة (بيروت: مؤسّسة الفكر العربيّ، ٢٠١٠)، ص ٣٠٦ – ٣١٢.

(٢) هشام البستاني، «الدائرة المغلقة: الشباب – التمرّد – الاستلاب،» **الآداب**، العدد ٣-٤/٢٠٠٦، ص ٥٧.

(3) Arab Human Development Report 2003, page 77.
والتقرير العربي الثالث للتنمية الثقافيّة، مذكور سابقًا، ص ٣٢٤.

سابعًا: إيثار التعبير النصيّ القصير. تتّسع الرسالة النصّيّة الخلويّة القصيرة لـ ١٦٠ كاركتيرًا بالإنجليزيّة، و٧٠ بالعربيّة، فيما يتّسع مربّعُ الستاتوس في الفيسبوك لـ ٥٠٠ (الكاركتر تعني حرفًا أو فراغًا أو رمزًا أو رقمًا). قد لا يعني هذا شيئًا لو كانت الرسائلُ الخلويّة وكتاباتُ الفيسبوك هامشيّة في حياة الناس، ولكنْ مع تحوّل الجهاز الخلويّ إلى جهاز أساسيّ، ومع صيرورة الرسائل النصيّة وسيلةً أساسيّةً من وسائل الاتصال والتعبير، ومع تحوّل الفيسبوك والتويتر وغيرهما من مواقع التواصل الاجتماعيّ إلى منافذ أساسيّة للتعبير عن النفس، صار الاختزالُ والتكثيفُ من السمات التي قد تطبع الكتابةَ والثقافةَ إجمالاً. يقول سماح إدريس:

«...اكتشفتُ أمرين مذهلين يتعلّقان بما أكتبُه على الفايسبوك. الأول: ضرورة تكثيف الفكرة لكي تبقى ضمن عدد محدّد من الكاركترز (٤٢٠)، إذ لا أحبّ أن يتجاوز الستاتوس حجمَ المستطيل المعدّ له. والثاني: أنّ الحوار مع المعلّقين كثيرًا ما بلور الفكرةَ الأصليّة وعمّقها (وقد يَنقُضها) على ما تُبيّن الستاتوساتُ اللاحقة. وفي ظنّي أنّ الفايسبوك لم يؤثّر في الانتفاضات العربيّة وحدها، بل قد يمتدّ تأثيرُه إلى الكتابة العربيّة الجديدة في السياسة والأدب.»[١]

ويجد هذا التحليلُ تعزيزًا له في مقطع ضمن نصّ قصصيّ لي، يشرّح تأثيرات الفيسبوك الاجتماعيّة والثقافيّة: «هذا زمن الرواية، قال جابر عصفور. لكنّ كُتّاب الشاشة الكبار اكتفوا بسطرٍ واحدٍ في خانة الـ status، وصار هذا ديوانهم الجديد.»[٢]

قد تكون للاختزال والتكثيف إيجابيّاتٌ، من حيث شطبُ الحشوات والتركيزُ على الفكرة. لكنهما قد يؤدّيان إلى ضعف التحليل إنْ كان ثمة ما يستوجب دعمَ الرأي وتبريرَه، وكثيرًا ما أسيء فهمُ كتابات من هذا النوع.

ثامنًا: استسهال الكتابة والرأي والتحليل. نظرًا إلى توفّر إمكانات النشر الإلكترونيّ، وسهولة إنشاء المدوّنات ومجّانيّتها، والانتشار الكاسح لمواقع التواصل الاجتماعيّ، فقد تسلّل الاستسهالُ إلى الكتابة، وتحوّلَ الأفرادُ (بغضّ النظر عن تمكّنهم المعرفيّ أو الأدبيّ) إلى «كُتّاب ومحلّلين» في الفكر والسياسة والأدب، وصار هذا النوعُ من الكتابة يلقى رواجًا من قبل «أصدقاء» الشخص الافتراضيين عبر «الإعجاب» بما يكتب (كبسة «Like» سريعة وغالبًا ما تكون مُجاملة) أو مناقشته بشكل سطحيّ أو مبتسر على نسق «الجمل السريعة القصيرة» التي تحتملها ردودُ الفيسبوك. وهو ما يعزّز الكتابةَ الاستسهاليّةَ التي لا أفقَ لتطوّرها، لأنّ ذلك الأفق مسدود بضعف البنى المعرفيّة وندرة القراءة.

نستطيع أن نحدّد مجموعةً من الممارسات الثقافيّة المرتبطة بالعصر لا بالعمر. ولمّا كان الشباب هم الفئة الأقرب إلى العصر، فإننا نستطيع القول إنّ هذه الممارسات أكثر انطباقًا عليهم من الفئات الأكبر سنًّا

تاسعًا: التمحور حول الذات. قد يكون هذا واحدًا من المفاهيم الأكثر أساسيّةً لليبراليّة والرأسماليّة الساعية إلى إنتاج الفرد المطلق، لأنّ عالم هذا الأخير يتمحور حول نفسه «ورغباته» التي لا تتوقّف. وهذه الأخيرة قابلة للتشكّل من خلال التنميط والدعاية، وتتحقّق من خلال الاستهلاك. على أنّ الوجود الفرديّ المطلق يُعتبر انقلابًا على الصيرورة «الطبيعيّة» لوجود الإنسان الذي كثيرًا ما تمّ تعريفُه بأنه حيوان اجتماعيّ. واستكمالاً لاتجاهات التكنولوجيا الفرديّة مثل الكمبيوتر الشخصيّ والهاتف الشخصيّ، والتضخيم الكبير لـ «الأنا» (i-pad، i-phone...الخ)، جاءت مواقعُ التواصل الاجتماعيّ لتعزّز ذلك من جهة كونها وسائلَ اتصال فرديّة وشخصيّة، على النقيض من الصحف والمجلات مثلاً. وكلّ ذلك يؤثّر في «الثقافة» وتعبيراتها المختلفة.

عاشرًا: إيثار الافتراضيّ على حساب الواقعيّ. تَخلق التكنولوجيا المعاصرة والفلسفاتُ التي أنتجتْها أفرادًا ينطلقون من الذات نحو الذات، منتجةً عوالمَ افتراضيّةً لممارسة الحياة بعيدًا عن الواقع المادّيّ، معيدةً بذلك تعريفَ «العالم الواقعيّ» وإنتاجَ الممارسة الثقافيّة. يقول ستيفن هوكنج وليونارد ملودیناو:

«نمطٌ آخر من الحقيقة البديلة يظهر في فيلم الخيال العلميّ The Matrix، وفيه يعيش البشرُ في واقع افتراضيّ مُحاكى مصنوع من قبل كمبيوترات ذكية لإبقائهم هادئين/مشبعين وراضين، بينما تمتصّ الكمبيوتراتُ طاقتهم الحيويّة... ربما لا يكون ذلك بعيدَ الاحتمال لأنّ الكثيرين يفضّلون قضاءَ أوقاتهم في عوالم المواقع الإلكترونيّة **المحاكية للواقع** باعتبارها حياةً ثانية. كيف نعرف أننا لسنا مجرّدَ شخصيّات في مسلسل تلفزيونيّ مُصنّع كمبيوتريًّا؟... إنْ لم تتمكّن كائناتُ العالم الافتراضيّ من النظر إلى عالمها من الخارج، فلن يكون لديها أيُّ سبب لتشكّ في الصورة المتكوّنة لديها عن الحقيقة.»[٣]

---

(١) سماح إدريس، «سوريا والفايسبوك وأنا: هوامش على دفتر الانتفاضة السوريّة،» **الآداب**، عدد ٧-٨-٩/٢٠١١، ص١.

(٢) هشام البستاني، «اندلاق المشاعر هذا يثير قيئي،» صحيفة **النهار** (بيروت)، الأحد ٢١ تشرين الثاني ٢٠١٠.

(3) Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, **The Grand Design: New Answers to the Ultimate Questions of Life** (London: Bantam Press, 2010), p 42.

هكذا يبدو أنّ التكنولوجيا تعمل رويدًا رويدًا على استيعاب الحقيقة الخارجيّة في «حقيقتها» الداخليّة الافتراضيّة، فتمتصّ الأفرادَ ليندغموا في العالم الافتراضيّ، ولتتحوّل «الحقيقة» الداخليّة هذه إلى كونٍ مغلقٍ يمنع أفرادَه من التحديق فيه من خارجه، مكمّلاً العزلَ الذي أشرتُ إليه في النقطة التاسعة.

حادي عشر: الفضائحيّة وانتهاء الخصوصيّة. بالإمكان ملاحظة الانتهاك السافر للخصوصيّة من خلال الكاميرات المنتشرة في الشوارع، وسهولة تتبّع مكان الشخص من خلال هاتفه الخلويّ، والتنصّت على مكالماته، والدخول إلى مراسلاته الإلكترونيّة، ومتابعة ميوله من خلال متابعة سجلّات دخوله على المواقع الإلكترونيّة ــ هذا من جانب السلطة أو الشركات التي تمتلك القدرات على ذلك وتستعملها. لكنّ المواقع الاجتماعيّة نقلتْ مهمّة انتهاك الخصوصيّة إلى مستوى الفرد نفسه الذي صار «يحمّل» عليها، **طواعيةً**، تاريخَ ميلاده ومكانَ عمله ومكانَ سكنه وأرقامَ هواتفه واسمَ زوجته (أو صديقته) وأسماءَ أولاده وصورَهم. وصار بإمكانك أن تعرف مكانَ الشخص الآن بتنزيل بعض التطبيقات الذكيّة أو لأنه لا يتوانى في الإعلان عن ذلك على الملأ («أنا في القاهرة» أو «أنا في مقهى الرينبو»)، أو أن تعرف حالته الصحيّة («لديّ رشح،» أو «خضعتُ اليوم لعمليّة الزائدة الدوديّة»). وصار بالإمكان معرفةُ ميول الأفراد من خلال تصفّح سريع لصفحاتهم على الفيسبوك. لقد حوّلتْ هذه المواقع كلَّ الافراد إلى «شخصيّات عامّة،» وصاروا يتعاملون مع أنفسهم على هذا الأساس.

ثاني عشر: إيلاء النشطاء السياسيين النشاطَ الحركيّ (Activism) الأولويّة على الأسس المعرفيّة. ولهذا أسبابه العديدة، على رأسها البؤسُ السياسيّ والمعرفيّ للأحزاب العربيّة، وطابعُها العامّ الملحق بالسلطة. وأدّى ذلك إلى التخلّي عن الحزب، وعمّا يُفترض أن يمثّله (الإيديولوجيا والأرضيّات المعرفية). فمن المفترض أن يُبنى النشاط السياسيّ على أرضيّات معرفيّة، وإلا أصبح قائمًا من أجل ذاته وينتهي بانتهائه، فلا يحقّق أثرًا يُذكر ويَسْهل استغلالُه. هكذا نقرأ على لسان شباب قاموا بالانتفاضة التونسيّة: «هذه ثورة بلا منظّرين ثوريين»[1] و«أغلب الشباب الذين قاموا بالثورة لم يكونوا مسيّسين، وبالتالي لم تكن ثورتهم موجّهة سياسيًّا. يوم الهروب [هروب بن علي] أحسسنا بمأزق: فالجميع في الشارع، لكنْ لا أحزاب قادرة على تحقيق الخطوة الموالية.»[2]

هذا الملمح الرئيس في الانتفاضات العربيّة يؤشّر بقوة على مجمل العوامل التي أوردتُها سابقًا حول تغيّر الأنماط الثقافيّة بابتعادها عن المعرفة، وبميلها نحو الفردانيّة والانعزال.

II - معوّقات التطوّر الثقافيّ لدى الشباب

١. **السلطة السياسيّة**، وذلك بضربها للحركة الطلابيّة، ومحاربتها للنشاط السياسيّ والفكريّ داخل الجامعات، ومنع قيام تنظيم طلابيّ نقابيّ موحّد ومستقلّ، ووجود مكاتب لأجهزتها الأمنيّة داخل الجامعات، وتحالفها التاريخيّ مع التيّار الدينيّ (وخصوصًا في ما يتعلّق بالمناهج التربويّة)، وفرضها الرقابةَ على المنتج الإبداعيّ، ودعمها للقوانين التي تحدّ من حريّة الرأي والتعبير والتنظيم.

٢. **البنية الاجتماعيّة والتعليميّة الأبويّة**، من الأسرة إلى المدرسة فالجامعة. وهي بنية تقوم على التلقين، والخضوع، ومحاربة الفكر النقديّ والفلسفة، ومحاربة ما لا يتّسق والمفاهيمَ الدينيّة (نظرية النشوء والتطوّر كمثال صارخ).

٣. **تعزيز الهويّات الفرعيّة**، الإقليميّة والجهويّة والعشائريّة والعائليّة والدينيّة. وهذه تقوم بها السلطةُ السياسيّة بشكل أساسيّ، وبعضُ أطراف «المعارضة الجديدة» أو «البديلة،» وقطاعاتٌ أخرى مستفيدةٌ من تفتيت المجتمعات إلى معازل.

٤. **الاستلاب الاستهلاكيّ/التجاريّ** (سبق الحديث عنه).

٥. **الرقابة**، وتتشابك فيها المسؤوليّة بين السلطة السياسيّة، والتيّارات الدينيّة، والمفاهيم الاجتماعيّة العامّة المحافظة. الرقابة تمنع كلَّ ما من شأنه أن يضع المسلّمات الدوغمائيّة على محكّ البحث، مسهمةً في تكريس التجهيل وتغييب العقل النقديّ.

٦. **الفساد والشلليّة والعصبويّة في الوسط الثقافيّ**. يمتدّ الفسادُ المستشري في بنية الدولة العربيّة القُطريّة إلى مؤسّساتها الثقافيّة، الرسميّة و«المستقلة.» فنرى ارتباطًا مباشرًا وغير مباشر بين المثقف والسلطة، فيما تعمل الشلليّة والعصبويّة على إهمال الأصوات الجديدة في الكتابة والفنّ ومحاربتها.

٧. **هيمنة السلطة ومؤسّسات التمويل والسفارات على الثقافة**. الثقافة لا تولّد الأموال في بلادنا عادةً، ومن ثم فهي تحتاج إلى مَنْ «يَصْرف عليها.» ومَن يصرف على الثقافة في بلادنا معروف: السلطة، والسفارات، ومؤسّساتُ التمويل المرتبطة بحكوماتها. وكلّ هذه الجهات ليست محايدة، أو لها أجندات خاصة، ولهذا فهي تمارس رقابة، وتسهم في حرْف المبدع عن مشروعه الإبداعيّ الذاتيّ لحساب تبنّي مشاريع لها تمويل متوفّر (مثلاً: مسائل المرأة وجرائم الشرف...)، وهذا نوع من الارتزاق المعكوس.

عمّان

---

(١) الأمين البوعزيزي في: «الشباب التونسيّ يتحدّث عن ثورته،» ندوة من إعداد وتقديم غسان بن خليفة، الآداب، العدد ١-٢-٢٠١١/٣، ص ٥٠.

(٢) ليلى فيفة في: المرجع أعلاه، ص ٤٩-٥٠.